

## خطبة الوداع للرسول

### النوع الأدبي: خطبة إسلامية:

تحدّث الباحثون عن فُنون الخطابة، عن الحُطَب السياسيّة، والخطب النيابيّة، والخطب الانتخابيّة، وخطب النوادي والمجتمعات، وخطب المؤتمرات السياسية، كما تكلموا عن سمات الخطابة القضائيّة، وخطب الوعظ الدّيني، والخطب العسكريّة، والمحاضرات العلميّة العامّة، وخطب التأبين، وخطب المدح والشُّكر، وقسموا الخطابة العربيّة من حيث تاريخها إلى: الخطبة الجاهليّة، والخطبة الإسلاميّة، أما الجاهليّة فقد تحدّثنا عنها في خطبة أكتفم بن صيفي وأما الخطبة الإسلاميّة فسنعالجها الآن.

الخطبة الإسلاميّة تتّسع باتّساع هذه الدعوة؛ لتشمل كلّ ناحية من نواحي الحياة، سواء كانت سياسيّة، أم اقتصاديّة، أم اجتماعيّة، أم أخلاقيّة، وسواء تعلّقت بالحرب أم بالسلم، بالمسجد أم بالسوق، بالحياة الخاصّة أم العامّة.

أنواع الخطب الإسلاميّة: ويجلو للبعض تقسيم الحُطَب الإسلاميّة إلى حُطَب وعظيّة، وخطب حكميّة أو فقهيّة، وخطب سياسيّة واقتصاديّة، وأحياناً يصفُّها البعض بأنها حماسيّة، أو الغرض منها الإثارة والتهيج.

ومن تتبّع الخطب الماثورة عن رسول الله (ص) والصحابة من بعده، فلن يجد مثل هذه التقسيمات، التي أدت إلى فصل الدّين عن الدُّنيا في جانب، وإلى استهانة ببعض صور الخطابة؛ كالحُطَب الوعظيّة عند قطاع المسلمين في جانب آخر.

المواضيع التي عالجتها الخطبة الإسلاميّة: إثارة بواعث الجهاد في سبيل الله، أو تناؤل موضوع سياسي أو اقتصادي، التذكير بمعاني التوحيد والاتباع، وربط الشرع بالواقع، والتخويف من عذاب الله، والتذكير بالجنة والنار، والموت والقبور والآخرة.

### الأغراض العامّة للخطبة الإسلاميّة:

1. الأغراض الدّينيّة: الدعوة إلى الإسلام، الردّ على الكفّار والمشركين، النهي عن المنكر، الحثّ على التمسك بمبادئ الدين، التخويف من جهنم وعذابها، الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله.
2. الأغراض السياسيّة: نشر الفكر الإسلاميّ، أو الدفاع عن ففة أو رأي أو معتقد، أو أداة لمغالبة الخصوم والردّ عليهم.
3. الأغراض الحربيّة: الحضّ والحثّ على القتال وتحميس الجنود أو استقبالهم بعد الحرب وكما أسلفت الذكر الدعوة إلى الجهاد.

### الميّزات الفكرية للخطبة الإسلاميّة:

1. الأفكار والمعاني مستمدّة من القرآن الكريم، أحاديث الرسول وسنته.
2. الصياغات قوية وموجزة لا استطراد فيها ولا استرسال.
3. تختلف عن الخطبة الجاهليّة بكونها صارت في العصر الإسلاميّ مرتبة، مترابطة من حيث تسلسل الأفكار.

### تحليل خطبة الوداع:

مناسبة الخطبة: ألقاها الرّسول (ص) في حجة الوداع يوم عرفة، وقد تخلّلت الخطبة شعائر الحج، كذلك قام الرسول في هذه الخطبة بوداع أمته معلّمًا إياها بدنو أجله، وموصيًا إياها ببعض الوصايا ولخصّ لهم في هذه الخطبة بعض الأحكام الدّينيّة مؤدّيًا الأمانة ومبلّغًا الرسالة.

شرح الخطبة: تعتبر الخطبة نموذجيّة للعصر الإسلاميّ فعلى نهجها سار المسلمون من بعد الرسول (ص)، تقسم الخطبة إلى ثلاثة أقسام رئيسيّة:

#### أ. المقدمة:

وهي مقدمة إسلاميّة تقليديّة على غرارها كتب الخطباء المسلمون بعد الرّسول (ص) وقد ابتدأها بالحمدلة والاستغفار والتوبة إلى الله عن كل الأعمال السيئة، واللجوء والاحتماء بالله من إساءة الإنسان لنفسه ومن النية السيئة والفعل السيء (شور نفوسنا وسيئات أعمالنا).

فالإنسان الذي يهديه الله لا يمكن أن يضلّ الطريق لأن الله هاديه، أمّا من يضلّ فلا هادي له سوى الله. ويشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبد الله ورسوله، أي جاء ليؤدي رسالة الله وهو عبد من عباده. والوصية الأولى التي يوصي بها الناس هي مخافة الله، أي تقوى الله، ويحثهم، يشجعهم ويدعوهم إلى طاعة الله.

ب. حثّ المسلمين على الاستماع إليه: استخدم الرسول "أمّا بعد" للانتقال من موضوع إلى آخر، فهو انتقل من المقدمة إلى دعوة المسلمين إلى الاستماع والإنصات لما يقول. فهو طلب إليهم الاستماع إليه حتى يوضّح لهم بعض الأمور، وذلك لأنه يشعر بدنو أجله، فيقول لهم لعل هذا اللقاء هو الأخير بيننا.

ج. الشرائع والوصايا:

- في الشرائع والوصايا حرّم الرسول (ص) بعض الأمور ومنها ما يلي:

1. "إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام" أي أن القتل بدون وجه حق ممنوع ومحرم، كذلك أخذ أموال الآخرين بدون وجه حق وبدون موافقتهم حراماً وممنوع ومحرم. وهذا الأمر محرم كحرمة هذا اليوم وهذا الشهر وهذه البلد، أي يوم الحج، شهر ذي القعدة، البلد الحرام أي مكة. وفي نهاية هذا المنع والتحرّم يطلب الرسول (ص) أداء الأمانة وإرجاعها لأصحابها.

2. "إن ربا الجاهلية موضوع"، أي أن إقراض الآخرين المال حتى يرجعوه لهم مع الربا "الفائدة"، هو أمر ممنوع لأنه يفسد العلاقات الإنسانية بين الناس، وهذا السلوك لا يتوافق مع الأخوة التي يذكرها الرسول لاحقاً، فالعلاقات بين الناس يجب أن تكون بمبنية على المحبة والربا يهدم العلاقات الطيبة بين الأصدقاء، لأنه يزيد من ثقل الدين أو القرض. وقد جعل الرسول من نفسه قدوة ونموذجاً يحتذى به في التنازل عن الربا، وذلك من خلال التنازل عن ربا عمه العباس بن عبد المطلب.

3. "إنّ دماء الجاهلية موضوعة"، ألغى الرسول عادة الأخذ بالثأر، لأن الأخذ بالثأر ولّد الكثير من الحروب بين القبائل، حروب استمرت أحياناً ما يزيد عن العشرين والأربعين سنة... ولذلك منع الأخذ بالثأر الذي فيه تهدر دماء الأبرياء وتفسد العلاقات بين القبائل والأفراد. وفي هذا أيضاً جعل الرسول من نفسه نموذجاً للتسامح يحتذى به، فقد تنازل عن ثأر قريب له هو عامر بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب.

4. "إنّ مآثر الجاهلية موضوعة"، ألغى الرسول كل عادات الجاهلية، كوأد البنات، أي دفن الفتيات عندما يولدن وهن أحياء، زواج المرأة لأكثر من رجل واحد، شرب الخمر، معاشرّة النساء.

يستثني الرسول (ص) من مآثر الجاهلية أمرين، السدانة أي المسؤولية على الكعبة، أي الحجابة، فتح وإغلاق بابها. والسقاية، أي سقاية الحجاج، فقد كان أهل مكة يملأون أحواضاً من ماء زمزم ويخلونها بالتمر والزبيب وذلك حتى يشرب الحجاج منها.

5. في موضع آخر يقول الرسول "إنّما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفسه"، هنا يحرم الرسول على المسلمين أخذ أموال بعضهم البعض إلا إذا الآخر سمح بذلك، وبهذا يمنع الرسول استباحة أموال الآخرين.

وقد شرّع الرسول بعض القوانين وأوصى ببعض الوصايا ومنها ما يلي:

1. "العمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ففيه مائة بعير فمن زاد فهو أهل الجاهلية"، عقوبة القاتل عمداً هي القتل، أمّا الذي يقتل عن غير قصد، وليس في نيته القتل فجزاؤه دفع ثمن مائة من البعير، أمّا من يزيد على ذلك هو من أهل الجاهلية أي كافر وبذلك يخالف وصايا الإسلام.

2. "لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض"، يحذر الرسول المسلمين من الحرب الأهلية بين المسلمين أنفسهم، ويحذرهم من الارتداد عن الإسلام، ويذكرهم بأنه ترك لديهم القرآن والصحابة الذين سيرشدون المسلمين إلى الطريق الصحيح حتى لا يضلوا.

3. "إنَّ ربكم واحد وإنَّ أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى"، يشدد الرسول على مبدأ الأخوة، وأن المفاضلة عند الله تكون وفقاً لتقوى الإنسان، وليس بحسب مقياسٍ آخر، فالأفضل بالنسبة لله هو الأكثر مخافة لله وإيماناً، ولذلك العربي ليس أفضل من الأعجمي أي الأجنبي غير العربي، فكلكم أمام الله متساوون، وبهذا يحدد الرسول مبدأ المساواة، الذي فيه يصبح الإنسان أفضل من غيره إذا كان أكثر إيماناً وتقوى.

### الأساليب:

الخطبة عامة تخلو من التشبيهات والاستعارات والسجع، إذ أن الرسول كان ينفر من السجع لأن الكهان كانوا يستخدمونه في الجاهليّة. والخطبة جزلة الألفاظ سهلة بعيد عن الإغراب والتعقيد.

1. بدأ الرسول الخطبة بالحمدلة والشكر والاستغفار وعلى نمحه سار الخطباء المسلمون من بعده. وقد أنهى المقدمة باستخدام أما بعد للانتقال إلى بداية الغرض.

2. أسلوب الخطاب الذي فرضه عليه وقوفه أمام الشعب مخاطباً، فاستخدم كاف الخطاب أو الخطاب للضمير أنتم: أوصيكم، أحثكم، اسمعوا، من كانت عنده أمانة فليؤدها. وكلها أفعال طلبية. وضمن هذا الأسلوب استخدم الرسول النداء ب"أيها"، أيها الناس. وبشكل عام الغرض من هذا الأسلوب هو جذب انتباه المستمعين لأقواله.

3. أسلوب التوكيد وذلك من خلال التكرار اللفظي: عامي هذا، موقفي هذا، يومكم هذا، بلدكم هذا. والتكرار باستخدام الحروف التوكيدية مثل إنَّ، وقد وكذلك التوكيد بلام الأمر: إنَّ دماءكم، ليؤدها، إنَّ ربا الجاهلية...، إنَّ أول...، إنَّما المؤمنون...، فليبلغ...

4. أسلوب النفي: لا يحل لامرئ، لن تضلوا، ليس لعربي... الغرض من هذا الأسلوب التحذير وإظهار عاقبة عدم الطاعة والسير بحسب هذا التحذير.

5. أسلوب النهي: لا ترجعوا بعدي... كذلك الغرض من هذا الأسلوب هو التحذير من العاقبة والنتائج السيئة لعدم الطاعة.

6. أسلوب التقرير: العمد قود وشبه العمد... ربا الجاهلية موضوع، دماء الجاهلية موضوعة، إنَّما المؤمنون إخوة.

7. أسلوب الاستفهام: ومن خلاله يطلب الرسول من المسلمين الاعتراف أمامه بأنهم على قناعة تامة برسالته، فيجيبه الناس نعم، فيقول اللهم اشهد.

8. أسلوب الحوار: قال، قالوا... وللحوار دور بين الخطيب وجمهور المتلقين، فهو يساعد على الدرامية أي تطوّر الأحداث، وجعل الجمهور مشاركاً فعلاً في الخطبة، ويظهر اهتمام الخطيب بالجمهور، كما وأن في الحوار إلقاء مسؤولية على الجمهور.

9. التناص مع القرآن الكريم: "من كانت عنده أمانة... عليها" مع ما ورد في القرآن "ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون" (البقرة، 188)

"أيها الناس إنَّ ربكم واحد... إلا بالتقوى" مع "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، إنَّ الله عليم خبير" (الحجرات، 13).

"إنَّ ربا الجاهلية موضوع" مع "يحقق الله الربا ويربي الصدقات" (البقرة، 276).

نرجو لكم النجاح الباهر

إعداد المعلمة صابرين عبد - صليح

